

العربية الفصيحة

من أهم أسس تمايز هويتنا العروبية

للدكتور صادق عبد الله أبو سليمان

المفهوم الحديث أو المعاصر لها^(٣).

وإذا أردنا أن نستفيد من تعريف

هذا العالم الجليل في هذه الدراسة فإننا سنرى أنه ينبئ إلى ما نحن بصدده، وهو الإدراك الواضح لارتباط اللغة بأهلها، ودلالاتها المميزة لهم؛ وذلك حين اختص كل قوم بلغة يعبرون بها عن مضامينهم.

وإذا كان ابن جني قد ربطها في تعريفه بكل قوم فهذا يعني من وجهة نظرنا أنه من الممكن أن يكون قد التفت إلى قدرة اللغة على التمييز بين طبقات المجتمع الواحد الذي يتحدث أهل لغة واحدة؛ فالعربية الفصحى أو الفصيحة وإن كانت لغة العرب جميعهم، فإن لأهل المغرب كما لأهل المشرق ما يميز كلاً منهم فيها؛ وإن لكل من أهل العراق أو سورية أو لبنان أو فلسطين أو مصر أو السودان أو دول الخليج العربي أو السعودية فيها ما

مدخل

(١)

اللغة هوية أهلها:

قال ابن جني (ت. ٣٩٢هـ) في

تعريف اللغة: "اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"^(١)، وقد تواتر أخذ هذا التعريف عند علماء العربية نصاً أو مضموناً؛ فابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) مثلاً نراه يُعرّف اللغة بأنها "عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لسانی، فلا بد أن تصير ملكة مقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم"^(٢).

وقد قرّن علماء العربية

المعاصرون بين تعريف ابن جني وغيره من تعريفات اللغة عند الغربيين وخلصوا إلى أنه اشتمل على أهم المضامين أو العناصر التي يتطلبها تعريف اللغة، وأنه لا يكاد يختلف عن

وإذا كان أمرُ اللغة كذلك فهي - فيما نوّكد - تُشكّلُ أهم عناصرِ أهلها السيادية. الدالة عليهم؛ لأنها تعيش معهم مختلف أنواع حيواتهم في أزمّنتهم وبيئاتهم وأحوالهم المتعددة، وهي التي تُعبّرُ بأصواتها عن كلّ ما يتصلُ بهم؛ فاللغةُ وأهلها وجهان لعملة واحدة، ولا يمكن لأحد - كما نظن - أن يشكك في صدق هذه المقولة: لا لغة بدون أناس يتكلمون بها، ولا مجتمعاً ذا كيان متكامل بدون لغة تميزه من غيره من المجتمعات.

ومما يدلل على أهمية اللغة في توحيد أهلها، والنهوض بهم هذه الشعوب التي هُزمت عسكرياً، وتمسكت بلغتها؛ فاليابانيون مثلاً بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الثانية خضعوا لشروط الأمريكيين في تغيير الدستور وحلّ الجيش ونزع السلاح وغير ذلك، ولكنهم رفضوا التخلي عن لغتهم القومية التي تمسّكوا بها، واستعملوها في معاهدتهم وجامعاتهم ودخلوا بها معتركات الحياة العلمية

يميزهم، وإن كانوا جميعاً من المشاركة، وكذلك حال إخوانهم المغاربة في موريتانيا والمملكة المغربية والجمهورية الجزائرية والجمهورية التونسية، والجمهورية الصومالية... إلخ؛ الأمر الذي ينطبق على تنوعات الدولة الواحدة بل محافظات بيئياً واجتماعياً وثقافياً وعرقياً وما إلى ذلك؛ فاللغة - كما هو معروف - عنصرٌ تمييزي لأهلها بصفة عامة؛ وفيها من الطاقات ما يُمكنها من التمييز بين جماعات المتحدثين بها.

ولسنا في المقام بصدد الخوض في تبيان الفروق الدلالية بين معنى كلمتي "قوم" و"أمة"؛ فإذا كانت إحداها تحمل في حروفها معنى أعمّ من أختها أو أخصّ فإنّ ما يعنينا في هذا المقام هو تأكيد الدلالة التمييزية لأية لغة على أهلها أيّاً كان عددهم، وقدرتها على الربط بينهم في مختلف بيئاتهم ومجالات حيواتهم؛ الأمر الذي يُشكّل عاملاً مهماً في تعزيز أو اصرّ التقارب والتوحد بينهم.

والصناعية المتطورة، وكذلك كان الكوريون الذين وقعوا تحت احتلال اليابانيين الذين فرضوا عليهم لغتهم، ومنعوا الكوريين من التعليم بلغة بلادهم، ولكنهم بعد تخلصهم من الاحتلال - بعد هزيمة اليابانيين في الحرب العالمية الثانية - وجدناهم اعتمدوا اللغة الكورية الفصيحة أساساً للتسمية البشرية، وجعلوها في بلادهم لغة التعليم في مختلف مراحلها، وتخصّصاته المتنوعة، وكتبوا جميع اللغات وأسماء المحلات بها فقط، وفي حال الاضطرار إلى كتابة أسماء أجنبية كما في لافتات السفارات والفنادق الكبرى جعلوها بالحروف الأجنبية الصغيرة تحت الحروف الكورية الكبيرة^(٤).

وكذلك فإن من دلائل اعتزاز الشعوب باللغة الأم - عنواناً واضحاً على هويتها وتمايزها القومي - هذا الصنيع الإسرائيلي الذي تمكّن من إحياء كيانه اللغوي: وهو اللغة العبرية التي كانت معرفتها مقصورة على

الحاخامات في كنسهم، وفقهاء اللغة في معاهدهم، فقد كان حرصُ الإسرائيليين المُحدثين - وهم من الكيانات الأقل نفيراً - على أن تكون لهم هوية لغوية مستقلة دافعهم الأول لإحياء اللغة العبرية الميتة، فضربوا بذلك مثلاً خالفوا فيه معطيات علوم اللسانيات التي يؤمن أصحابها بأن اللغات الأم كاللاتينية أو السنسكريتية أو السامية أو غيرها لا يمكن إعادتها إلى الحياة؛ لأن اللغة ظاهرة صوتية لا تحيا إلا بالاستعمال، ولا تؤخذ إلا سماعاً، ولا يمكن تعلمها من نقوش أو رموز كتابية دون وجود من ينطقها في مجالات الحياة.

هياً هؤلاء الناس سبل الحياة لغتهم، ووجدناهم يُحرّمون في جامعاتهم ومعاهدهم العلمية التدريس غيرها، ودعموا دارسيها ومراكز البحث فيها، ليصوغوا - رغم انشغالهم بالحروب، وسعيهم إلى تعزيز وجودهم الغريب في قلب العالم العربي - ما يعزّز لهم تمايز هويتهم اللسانية

واستمرار صلتهم بها، وهو قاموسهم العبري الحديث، ومجموعهم اللغوي التاريخي الذي يحكي حياة عبريتهم، ويبرهن على وجودهم في التاريخ القديم.

لم ينشغلوا كثيرًا بعقد المؤتمرات التي تدعو إلى عبرنة لغة كيانه، ولم يقفوا كثيرًا عند قضية الاقتراض من لغات غيرهم، ولو كان من العربية لغة أعدائهم؛ أخذوا من غيرهم وأكسبوه الرطانة العبرية؛ دلالة على أثرهم الذي يريدون تعزيزه في كل ما يسيطرون عليه.

وأيًا يكن أمر الدول التي يكون لمجتمعها بل لمجتمعاتها غير لغة فإن الذي لا نشك فيه البتة أن كل جماعة لغوية فيها سئراها تتحزب للغتها، ويتعاش أفرادها في تجمعات أو بيئات متشابهة فيما بينها، ويتنفسون هواء يشكّل زفيره مادة عصبيتهم التي ينحازون إليها في وقت الشدائد، أو الخلافات التي تنشب مع شركائهم من أبناء اللغات الأخرى.

وإن مما يدلنا على أهمية اللغة في تميز أهلها أنك تجد أصحاب اللغة الواحدة - أيًا كان عددهم أو شأنهم - لا يقبلون الانسلاخ عن لغتهم الأم، وهناك في عالمنا المعاصر أمثلة ظاهرة على شعوب غلبت على أمرها، ولكنها تمسكت بلغاتها، وإن فرض لغة الغالب عليها شكل عندها دافعًا قويًا لغرس وجود لغتها في السنة أبنائها، وتعزيز ثقافة تمسكهم بها.

وكذلك فأيا كانت رغبة شعوب في التوحيد أو التقارب أو التحالف مع غيرها فإنها لا تقبل التخلي عن لغتها الأصلية؛ فحول الاتحاد الأوربي التي قطعت أشواطًا كبيرة في سبيل وحدتها تعطي كل منها المثل الواضح في المحافظة على لغتها السائدة في أهلها، وكذلك كان الحال في احتفاظ كل منها بعملتها الخاصة بها، وذلك على الرغم مما حققه اليورو - العملة المعبرة عن الاتحاد الأوربي - من تفوق في سلة أسعار العملات العالمية.

من مظاهر حفاظ العرب

على هويتهم الفصيحة عبر التاريخ

(٢)

إِنَّ تَفْخُصًا لِتَارِيخِ الْعَرَبِ
وَعَرَبِيَّتِهِمْ الطَّوِيلِ عِبْرَ الْقُرُونِ سَيُظْهِرُ
كَيْفَ عُنِيَ الْعَرَبُ فِي مَخْتَلِفِ أَرْزَمَتِهِمْ
بِالْمَحَافِظَةِ عَلَى تَمَازِيهِمُ اللَّسَانِي؛ إِذْ
حَرَّصُوا فِي أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى أَنْ تَكُونَ
لَهُمْ لُغَةٌ عَرَبِيَّةٌ مُشْتَرَكَةٌ يَتَرَفَعُونَ فِيهَا
عَنِ الْخَصَائِصِ اللَّهْجِيَّةِ لِلْسَانِ كُلِّ قَبِيلَةٍ
أَوْ عَشِيرَةٍ مِنْهُمْ، وَإِنَّ الْقَارِئَ لِتُرَاتِيهِمُ
الْأَدَبِيِّ شَعْرًا وَنَثْرًا يَرَى - فِي الْأَغْلَبِ
الْأَعْمَ - التَّزَامَةَ بِأَنْظُمَتِهَا اللَّغَوِيَّةِ
الْمُطَرَّدَةِ، وَيَلْحَظُ أَيْضًا خُلُوءَهُ مِنْ
اللَّهْجَاتِ وَالْمُفْرَدَاتِ الدَّخِيلَةِ، وَلَعَلَّ مِمَّا
يَعَزِّزُ رَأْيَنَا - فِي هَذَا السِّيَاقِ - إِطْرَادَ
هَذَا النِّقَاطِ أَيْضًا فِيمَا وَصَلْنَا مِنْ أَدَبِ
الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَجَاوِرَةِ لِغَيْرِ الْعَرَبِ
مِنَ الرُّومِ وَالْفَرَسِ وَالْأَحْبَاشِ وَغَيْرِهِمْ.

وَاسْتَمَرَّتْ عَنَايَةُ الْعَرَبِ بِلُغَتِهِمْ
بَلْ زَادَتْ مَعَ اخْتِلَاطِهِمْ بِغَيْرِهِمْ مِنْ
أَبْنَاءِ الْأُمَمِ الْأُخْرَى بَعْدَ أَنْ مَنَّ اللَّهُ ﷻ
عَلَيْهِمْ بِالْإِسْلَامِ، حَيْثُ وَضَعُوا الْعُلُومَ

اللُّغَوِيَّةَ مِنْ صَوْتِيَّةٍ وَصَرْفِيَّةٍ وَنَحْوِيَّةٍ
وَمَعْجَمِيَّةٍ وَدَلَالِيَّةٍ وَبِلَاغِيَّةٍ؛ لِلْحِفَافِ عَلَى
خَصَائِصِ لُغَتِهِمْ فِيهَا، وَلِيَعْلَمُوهَا لِغَيْرِهِمْ
وَفَقَّ قَوَاعِدَ مَنْظُومَةٍ مَأْمُونَةٍ.

وَحَرَصًا عَلَى عَرُوبَةِ الْخِلَافَةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ كَانَتْ عَمَلِيَّةُ تَعْرِيْبِ الدَّوَابِّ
فِي عَهْدِ الْأُمَوِيِّينَ، وَكَانَ تَعْرِيْبُ الْعُلُومِ
وَمَنْجَزَاتِ الْحَضَارَةِ فِي الدَّوَلَةِ
الْعَبَّاسِيَّةِ، وَظُهُورُ الْمُدُونَاتِ بِلِ
الْمُوسَّوَعَاتِ الشَّامِلَةِ فِي مَخْتَلِفِ
مَجَالَاتِ عُلُومِ الْعَرَبِ وَالْإِسْلَامِ فِي أَيَّامِ
حُكْمِ الْمَمَالِيكِ وَالْعُثْمَانِيِّينَ لِلْعَالَمِ
الْعَرَبِيِّ، وَإِنَّا لَنَقْرَأُ أَنَّ هُنَاكَ فِي الْقُرُونِ
الثَّانِي عَشَرَ الْهَجْرِيِّ مِنْ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ
مَنْ ظَلَّتْ حَرِيصَةً عَلَى سَلَامَةِ لُغَتِهَا
مِنْ تَأْثِيرِ الْغُرَبَاءِ، فَلَمْ تَكُنْ تَسْمَحُ
لِزَوَارِهَا مِنْهُمْ أَنْ يُقِيمُوا بَيْنَ أَهْلِهَا فَوْقَ
ثَلَاثِ لَيَالٍ^(٥).

اسْتَمَرَّ هَذَا التِّيَّارُ الْمَحَافِظُ عَلَى
لُغَةِ الْعَرُوبَةِ وَالْإِسْلَامِ فِي عَصْرِنَا
الْحَدِيثِ، وَكَانَ تَجَلِّيَهُ - بِدَايَةِ - فِي مِصْرَ
فِي عَصْرِ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ: هَذَا الرَّجُلِ
الْأَلْبَانِيُّ الَّذِي أَدْرَكَ أَنَّ حُلْمَهُ فِي إِقَامَةِ

وحدها بل في عالمنا العربي بصفة عامة؛ إذ كان لخطواته المنيرة في حقول التعليم والترجمة إلى العربية، ووضع القواميس التي تعنى بتعريب المصطلح الأجنبي أثرها المفيد في التنوير وبعث الحركة العلمية الحديثة.

ولعل من أهم منجزاته في هذه المجالات إنشاء "قلم الترجمة": هذا المحقل التعريبي الذي تسنى لرفاعة من خلاله جميع المترجمين وتوحيد جهودهم في ترجمة الكتب العلمية والطبية والهندسية وغيرها إلى العربية، وكذلك يجيء إنشاءه لمدرسة "الألسن" دافعا إلى العناية بالتعليم العالي والترجمة إلى العربية التي سعى إلى مدّها بكثير من الألفاظ والمصطلحات العربية والمعرّبة.

وتتجلى خدمة رفاعة للعربية في مجال خدمة المصطلح حين وجدناه يلحق كتبه بهذه الملاحق المعجمية التي كان يتولّى فيها عرض المصطلحات الأجنبية التي جاءت في متونها وتعريبها لها.

الإمبراطورية المصرية العربية الحديثة لا يمكن له أن يتحقق إلا بالمحافظة على العربية لغة البلاد، والجذ في تنميتها، وبعثها لتكون لغة حيّة تستعمل في مختلف مجالات الحياة الحديثة ولاسيما التدريس وتأليف مصنفات العلوم والفكر بصفة عامة.

وتحقيقاً لهذه الغاية النبيلة كانت رعايته لمشاريع الترجمة إلى العربية، واستقدامه المترجمين والمدرسين من الشوام والمغاربة، وكذلك كان حرصه على ابتعاث النبهاء من شباب المصريين إلى بلاد الغرب؛ لينهلوا فيه من حقول المعرفة المتنوعة، وليكونوا الوسائل المستتيرة إلى نقلها في بلدهم، سواء بالترجمة أم التدريس أم التأليف؛ إذ ألزم كل مبعوث عند عودته من سفره بترجمة كتاب في تخصصه.

وفعلاً كان هؤلاء نفر رادة البعث والتنوير في مصر الحديثة بل العالم العربي، وبرز من بينهم رفاعة رافع الطهطاوي الذي يُسكّل بحق أبا النهضة العلمية الحديثة لا في مصر

وكذلك كان إحصاءه بمفردات العربية وتراكيبها في كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" في مجالات جديدة، حيث وصف فيه ما لاحظته من مشاهد في الحياة الفرنسية العامة والعلمية رأى أن ينقلها إلى قراء العربية ليستفيدوا منها.

وفي مجال خدمة العربية وتدريب قواعدها كان كتابه "التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية" الذي عرض فيه النحو العربي بأسلوب ميسر بعيداً عن لغة كتب الحواشي والتقارير التي كانت سائدة آنذاك، وزوده بالأمثلة والجدول والشروح الواضحة؛ ليكون معوناً على تيسير دراسة العربية وإقبال الناشئة عليها؛ ويشكل هذا الكتاب بداية موفقة في تقريب قواعد نحو العربية وإملائها إلى عقول الناشئة وأقلامهم.

ولسنا في هذا المقام بصدد تفصيل القول فيما قدمته المدرسة المصرية للعربية بريادة رفاة أو غيره من أعلام الفكر المصري، أو الوقوف

عند الأعلام العرب في الأصقاع العربية الأخرى الذين قدموا خدمات جليلة لها من أمثال: الفارياق: أحمد فارس الشدياق وخير الدين التونسي ومحمد الخضر حسين وإبراهيم اليازجي والبستاني ويعقوب صروف وجرجي زيدان و خليل السكاكيني وإسعاف النشاشيبي وغيرهم.

ومما يذكر في مجال حماية العربية وردها هذه الجهود الجبارة التي بذلتها الدول العربية الأخرى، مثل دولة سورية التي اعتمدت - في البداية - على الكتب المصرية في التعريب، وحرص مسؤولوها وأبنائها الغير على الحفاظ على عروبة لسانهم، وأصرّوا على استعمال العربية في تدريس علوم الطب وغيرها من العلوم الحديثة، وما يزالون مضرب المثل بين العرب في الحرص على استعمال العربية الفصيحة في مختلف مجالات حياتهم، وقد تجلّى الحرص السوري على إذاعة العربية وسلامتها في هذا المرسوم الرئاسي الذي أصدره الرئيس

العربي يلمسُ اهتماماً عربياً عاماً باللغة العربية الفصيحة والعمل على نشرها، فلا تكادُ دولة عربية تخلو من مؤسسة لغوية أو أكثر.

من مشكلات العربية

(٣)

ما زالت العربية الفصيحة اللغة التي يجتمعُ عليها العربُ لساناً، وأملاً في أن تبقى رابطاً جامعاً لهم يعززُ تواصلهم مستقبلاً، ويعبرُ عن هويتهم الواحدة، وفي ظل الظروف المتردّية التي تشهدها الساحة العربية في هذه الأيام فإنّ العربية الفصيحة - برغم ما يُثارُ ضدها من اتهام بالضعف، وتهدُّد بالانقراض - تبقى العنوان الجامع للعرب، واللسان الكاشف عن أحوالهم الحلوة والمرّة، وهذه وظيفتها التي لم تتخلَّ عنها عبر المكان العربي؛ فليس من شك في أنّ هذه اللغة قد عبّرت عن أحوال أهلها قوّة وضعفاً؛ انتشرت حيثما انتشروا، وسادت بسيادتهم، فوجدناها بعد ظهور الإسلام تشهدُ إقبال الناس عليها في بلاد كثيرة، وتحقّق

بشار الأسد بمناسبة التجهيز لفعاليات دمشق عاصمة الثقافة العربية في عام ٢٠٠٨م، يقضي بالالتزام بتسمية المحال التجارية والميادين العامة وغيرها؛ وكذلك دولة لبنان التي ما يزال أهلها يقاومون تقسيمهم إلى طوائف متناحرة وجدنا علماءها الأجلاء يتحدثون في تنمية العربية وتعريب مصطلحها وتحديث درسيها اللغوي، ويدفعهم حرصهم على مقاومة تيارات التغريب أو الفرّجة إلى صناعة المعجمات للحفاظ على سلامة العربية الفصيحة، ودعمها لتلبية متطلبات العلوم والحضارة، إذ سعوا إلى تحديثها وتهذيبها وتيسير ترتيبها لتلبي متطلبات قرائها منها بدون عناء؛ والجزائر البلد المغربيّ المشرف بذل أهلُه الأرواح رخيصة لتحرير الأرض والإنسان من أنيار المحتلين، وخاضوا بعد إجبارهم على الرحيل معارك شرسة للتحوّل من الفرنسة إلى العوربة.

وبصفة عامّة فإنّ المتتبع للحركة الثقافية والبحثية في الوطن

كذلك انتشاراً ونُمُوّاً وازدهاراً في مجالات كثيرة، واستمرَّ هذا الحال لقرونٍ عدّة.

وكذلك انزوت بانزوائهم؛ فإنّ الذي لا يُستطاع إنكاره أنّ اللغة العربية قد عانت بعضاً من ضعف أهلها وتراجعهم؛ وذلك بفعل عوامل الضعف والتقهقر والانقسام الذي أصاب الدولة العباسية قبل انهيارها؛ وذلك بسبب ضعف سلطة الحكّام العرب فيها، ونفّسُها إلى دويلات وإمارات، وهيمنة عناصرٍ غير عربيةٍ على الحكم في كثيرٍ منها، وقيام الحروب الصليبية، وسيطرة الأتراك على الخلافة الإسلامية، ووقوع البلدان العربية تحت الاغتصاب الغربي وهيمنته، وخروجها دولاً ودويلاتٍ متفرقةً تسعى كلٌّ منها إلى تحقيق مصالحها الخاصة ولو على حساب غيرها من الدول العربية أو المصلحة العربية العامة.

كان لهذا الضعف السياسي وتفرّق العرب وتكالب الأمم الأخرى عليهم أثره غير المنكور في تراجع

العربية الفصيحة لحساب انتشار سلطان اللهجات المحلية التي تنوّعت مصادرها والمؤثرات فيها؛ ودخول ألفاظ وتراكيب غريبة أو دخيلة في عربيتها الفصيحة والعامية.

وليس خافياً أنّ سلاطين الهيمنة قد استغلوا تقهقر القوة العربية فعملوا على زيادة إضعافها في مختلف المجالات، وكانت اللغة العربية الفصيحة من العناصر التي خططوا لإضعافها بمختلف الحيل ومعاول الهدم؛ وحثّوا أبواقهم على التقليل من شأنها بين اللغات، وإذاعة عدم قدرتها على الاستجابة لمطالبات الحضارة والعلوم العصرية.

وأياً ما يكن الأمر فقد ابتليت العربية الفصيحة منذ بداية العصر الحديث بخططٍ مأكرةٍ و دعاوى خبيثة، ارتكز واضعوها ومروجوها على وصم هذه اللغة بعيوب صوّروا أنها مشكلاتٌ خاصّةٌ بها، ولم يكن قصدُهم من وراء هذه التهم الباطلة إلا الحطّ من مكانة العربية الفصيحة، وغرس بُذور

الشَّكُّ عِنْدَ الْعَرَبِ فِي قُدْرَتِهَا عَلَى
الْوَفَاءِ بِمَتَطْلِبَاتِهِمْ مِنْهَا، وَإِيْهَامُهُمْ أَنَّهَا
وَرَاءَ تَخْلُفِهِمُ الْعِلْمِيَّ وَالْحَضَارِيَّ.
أقول:

واجهتِ العربية على امتداد
العصر الحديث حرباً ضروساً سخر
مُحِكُوها كلَّ ما يمتلكون من وسائل
فكرية ومادية وإعلامية لتنفيذ
مخططاتهم، وجعلها واقعا يُسْنَمُ في
هَدمِ تواصلِ العربِ لُغَوِيًّا وقومِيًّا؛
رَأَيْنَاهُمْ لِتَحْقِيقِ مَآرِبِهِمُ الْخَبِيثَةِ يُذَيِّعُونَ
شَائِعَاتٍ مُغْرِضَةً تَنْهَشُ فِي أَنْظِمَتِهَا
اللُّغَوِيَّةَ، وَيَسْخَرُونَ طَاقَاتٍ عَرَبِيَّةً -
أَقْنَعُوهَا أَوْ اقْتَنَعَتْ مُبْتَلِيَّةً بِآفَةِ التَّقْلِيدِ أَوْ
التَّكَرَّارِ دُونَ تَمَعُّنٍ، وَاسْتِحْسَانِ كُلِّ
غَرِيبٍ - لِإِنْفَازِ مَا يَرِيدُونَهُ.

وللهِ دَرُّ شَاعِرِنَا الْفَلَسْطِينِيِّ
الشَّهِيدِ عَبْدِ الرَّحِيمِ مُحَمَّدٍ
(١٩١٣ - ١٩٤٨م) الَّذِي كَشَفَ فِي
قَصِيدَتِهِ: بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ
(بحر الكامل) عَنْ أَسْلُوبِهِمُ الْمَخَادِعِ
فِي بَثِّ سُمُومِهِمْ فِي الْعَرَبِ، فَقَالَ:
(الكامل) (٦).

لَا تَأْمَنُوا الْمُسْتَعْمِرِينَ فَكَمْ لَهُمْ
حَرْبٌ تَقْنَعُ وَجْهَهَا بَسْلَامٌ
حَرْبٌ عَلَى لُغَةِ الْبِلَادِ وَأَهْلِهَا
لَيْسَتْ تُشْنُ بِمَدْفَعٍ وَحُسَامٍ
وَالشَّعْبُ إِنْ سَلِمَتْ لَهُ أَوْطَانُهُ
وَلِسَانُهُ لَمْ يَخْشَ قَطْعَ الْهَامِ
لَا أَعْرِفُ الْعَرَبِيَّ يَلُوي فَكَّهُ
إِنْ هَمَّ يَوْمًا فَكَّهُ بِكَلَامٍ
وهو - حِينَ يُحْذَرُ مِنْ مَخَاطِرِ
الانْسِيَاقِ إِلَى مَهَاوِي مَا يَرِيدُونَ -
يُوضِّحُ مَا لِهَذِهِ اللُّغَةِ مِنْ آثَارِ جَلِيلَةٍ فِي
الْحِفَاطِ عَلَى تِمَاسُكِ الْعَرَبِ وَقُوَّتِهِمْ،
فَيَقُولُ:

وَالشَّعْبُ إِنْ سَلِمَتْ لَهُ أَوْطَانُهُ
وَلِسَانُهُ لَمْ يَخْشَ قَطْعَ الْهَامِ
لَا أَعْرِفُ الْعَرَبِيَّ يَلُوي فَكَّهُ
إِنْ هَمَّ يَوْمًا فَكَّهُ بِكَلَامٍ
وَيُؤَكِّدُ أَنَّ اسْتِعَادَةَ الْأُمُجَادِ لَا يُمْكِنُ
لَهَا أَنْ تَتَحَقَّقَ بِلُغَةٍ لَا يَسْتَطِيعُ أَهْلُهَا
حِمَايَتَهَا مِنْ سِهَامِ الْأَعْدَاءِ؛ لِذَا فَإِنَّ الْبَدَأَ
بِالنُّهُوضِ يَجِبُ أَنْ يَقُومَ عَلَى قَوَاعِدِ
الْتِمَسُكِ بِاللُّغَةِ عَنَوَانِ التَّمَايُزِ، وَأَهَمُّ
مَقُومَاتِ وَحَدِثِهِمْ، يَقُولُ:

مختلف المجالات بالفاظ جديدة أو مولدة
لا تخرج عن نظامها في الوضع.

وغني عن البيان في هذا المقام
أن نوضح أن العربية الفصيحة قد
عبرت عن أهلها في مختلف أحوالهم،
وأنها استطاعت وهي الخارجة من
الصحراء الاستجابة لمتطلبات العلوم
والحضارة في العصور الإسلامية
الأولى وغيرها، ونجحت وفق إمكاناتها
الذاتية في تجارب تعبيرية متنوعة
المجالات.

وغني عن البيان أيضا أن
العربية ذات التاريخ العريق قد امتلكتها
غير أهلها من أجناس الأمم الأخرى،
وأن النابهين منهم تفوقوا في التأليف
بها أو الترجمة إليها، وشاركوا العرب
أهلها الأصليين في حفظ الحضارات
القديمية وعلومها وفكرها، وأضافوا إليها
ما يدرس الآن في الجامعات العربية
والغربية وغيرها؛ إذ تكشف دروس
تاريخ العلوم أن العرب لم يخلقوا -
بهذه من دينهم الذي جاء ليخرج
البشرية جمعاء من الظلمات إلى

لن يستعيد العرب سالف مجدهم
ولسانهم غرض لرمي سهام
إن يرقعوا ما انقض من بنيانهم

فالضاد أول حائط ودعام
وإن من مزاعم أهل الهيمنة
والاغتصاب ومقترحاتهم في مجال
الهجوم على العربية ولا سيما الفصيحة
إذا عتاهم لما يلي:

أولاً- صعوبة العربية وأنظمتها
النحوية:

تحدث أعداء العربية عن
صعوبة العربية وأنظمة قواعدها
النحوية، وزعموا أن هذه الصعوبة
تؤثر في تحصيلها، ويرجع إليها سبب
عدم قدرة أهلها على التقدم في مجالات
العلوم والحضارة متناسين ومتكبرين
لأراء لغويهم ومفكريهم الذين ما انفكوا
في دروسهم ومصنفاتهم يكررون مقالة
البحث العلمي التي نؤمن بها، وهي أن
اللغة- أية لغة- وليدة فكر أصحابها؛
لذا فإنها لا تعجز عن أن تعبر عن حياة
أهلها وفكرهم، وأن أهلها لن يكونوا
عاجزين عن التعبير عن إبداعهم في

مجالات التأليف العلمي والتقني؛
وتدريس العلوم والتقنيات الحديثة ينبغي
ألا نؤمن به.

وقد سبق لنا في سياق دراسي
آخر أن وقفنا عند آراء مجموعة من
الدارسين والمفكرين في حل مشكلة
ازدواجية اللغة عند العرب^(٧)، فوجدنا
من يقترح عليهم ترك لغتهم الفصيحة
في هذه المجالات، مغفلاً أن هذه
الازدواجية ليست مقصورة على العرب
وحدهم؛ فلكل لغة أو لهجة في الكون
من الملامح أو العناصر التي يمكن لها
أن تميز بيئة أو قوماً أو طبقة أو جيلاً
فيها.

وكان اقتراح اتخاذ العامية لغة
للحديث والكتابة أحد الحلول المقترحة
في هذا المجال، وذلك على النحو الذي
وجدناه عند ولهم سبيتا والكونت
كرلودي لندبرج وكارل فولرز ووليم
ويلكوكس وسلدن ولمور وغيرهم من
الأجانب، وإسكندر المعلوف والأب
مارون غصن وأيس فريحة وجميل
صدقي الزهاوي وغيرهم من العرب.

النور- أي باب أمام طلبة العلم من
مختلف الأجناس، وكيف كان الغربيون
يعيشون في ظلام دامس، والعربية
ترهق بما تقدمه للبشرية من منجزات
علمية وفكرية وحضارية استفادوا منها
في نهضتهم التي ما زالوا ينعمون
بأنوارها، ويحرمون غيرهم من أنفع ما
فيها.

إن امتلاك غير العرب للعربية
وتبوأهم كأصحابها لنواصي البيان فيها
ليعد من الأدلة القوية في تنفيذ مزاعم
أعدائها والمروجين لأفكارهم الهدامة
في القول بصعوبتها، وعدم قدرتها على
التعبير عن علوم العصر الحديث
وحضارتها؛ فإذا كانت هذه اللغة قد
طاوعت السنة غير أهلها أ تكون عصية
على أهلها؟!.

ثانياً- الدعوة إلى التخلي عن العربية
الفصيحة:

وإذا كانت العربية الفصيحة-
كما أوضحنا- على هذا النحو من
القدرة على التعبير عن المستجدات فإن
القول بوهن الدعوة إلى التخلي عنها في

وكانت الدعوة إلى اتّخاذ لغةٍ أجنبيةٍ بديلاً آخرَ للعربيةِ الفصيحةِ اتجاهاً قال به نفرٌ من دعاةِ حلِّ مشكلةِ الازدواجيةِ في العالمِ العربيّ، وهي دعوةٌ اغتصابيةٌ مأكرةٌ، ولا غرابةَ أن يواجهها جمهورُ العلماءِ والمفكرين العربِ بالرفضِ والتصدي، والمطالبةِ بالتعريبِ ونبذِ العناصرِ الأجنبيةِ في العربيةِ.

وإنَّ ما يدعو إلى العجب أن نجد فئةً من أبناءِ اللغةِ العربيةِ من أمثالِ أمينِ شميلٍ تدعو إلى استعمالِ لغةٍ أجنبيةٍ ولاسيما اللغةِ الإنجليزيةِ بدلاً من العربيةِ متذرعاً بأنَّ التقدّمَ في هذهِ العلومِ الحديثةِ من طبٍّ وهندسةٍ وصيدلةٍ وما إلى ذلك لا يُمكنُ أن يكونَ بغيرِ هذهِ اللغةِ الأجنبيةِ التي يتحدّثُ بها أو يعرفُها أكثرُ البشرِ؛ الأمرُ الذي سيُسنهُمُ في توحيدِ لغةِ العلمِ وإيجادِ لغةٍ كونيّةٍ أو كوكبيّةٍ يشتركُ فيها سكانُ العالمِ جميعُهم.

وليسَ من شكٍّ في أن هذهِ

وفي هذا الإطارِ ظهرتِ الدعوةُ إلى ما يمكنُ تسميتهُ: "قُطريّةُ اللغةِ"؛ فكانتِ الدعوةُ إلى "تمصيرِ اللغةِ" أو "الفرعونيةِ" أو "المصريّةِ" في مصر، و"فينيقيةِ اللغةِ" في لبنان؛ وهي دعوةٌ إنّ جُمِلَتْ بغاياتِ عرقيّةٍ فإنها تَصَبُّ في خاناتِ تمزيقِ شملِ اللسانِ العربيِ الموحّدِ؛ الأمرُ الذي سينتجُ عنهُ فقدانُ الدولِ العربيّةِ للرابطَةِ اللغويّةِ بينها، وهي أهمُّ روابطها العروبيّةِ، وأبْنَيْنُ مظاهرٍ وُحدةٍ أبنائها حينَ يجتمعون، فقد ترى مضامينهم وأهواءهم متباعدةً، ولكنهم متوحدونَ في نطقِ ألسنتهم للغةِ العربيّةِ الفصيحةِ: لغةٍ تواصلهم "Lingua franca".

وكذلك كانتِ الدعوةُ إلى لغةٍ عربيّةٍ تجمع بين العاميةِ والفصيحةِ فيما سُمّي: "اللغةِ الوسطى" أو "اللغةِ الثالثةِ" أو "الفصحى المخففة" أو "اللغةِ المتوسطةِ المعتدلة" عندَ فرح أنطون وطفه الحكيمِ وساطعِ الحُصريِّ ومحمدِ كاملِ حسن وغيرهم على اختلافٍ أو اتفاقٍ في الهدفِ وتسميةِ هذهِ اللغةِ.

وقوانين التعامل فيها، وكذلك فإن إصرار الجامعة السورية- بصفة خاصة- على تطبيق استعمال اللغة العربية الفصيحة في مجالات التدريس العلمية والتقنية وغيرها ليعُدُّ برهنة عملية على قوتها، ومثالاً صالحاً للاحتذاء.

*** إنَّ القول بوجود مصطلحات وألفاظ أجنبية في لغتنا العربية حجة باطلة تقول بضدّها دراسات اللغويين في مختلف اللغات التي أوضحت عدم سلامة اللغات من الاقتراض أو الاستعارة بعضها من بعض، ولعلي لا أبتعد عن الحقيقة العلمية حين أقول: ما دام هناك احتكاك أو تواصل بين البشر فلا مجال لإنكار هذه الظاهرة اللغوية في لغات العالم.

*** إنَّ اطلاعاً على التقدم العلمي من حولنا ليبيّن أنه ليس مقصوراً على لغة معينة؛ فهو موزع على اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والصينية واليابانية وغيرها، وذلك بقدر إسهام أهلها في

الآراء الهدامة لا محل لها في منطق الإعراب عن هوية الأمة، وأنَّ استجابة أية أمة لها سيُصيبها بالضرر البالغ في أهم مميزاتا، ونحن في مجال العربية نقول بوهن حجج الداعين إلى نبذها لصالح لغة غيرها.

وتودّ- في هذا المقام- أن نوضح مجموعة من الأمور التي تدعّم رأينا، وتُعزّز مواقف الثابتين على لغتهم الأم في التعبير عن أنفسهم، فنقول:

*** إنَّ صمود العربية وأهلها في مواجهات الخصوم، واستجابتها في كثير من المواطن لمطالبات العلوم والحداثة على مدى قرن من الزمان يُعزّز الثقة بقدرة تراثها على دعمها في هذه المجالات الحيوية.

*** إنَّ نجاح الدول العربية- بصفة عامة- في تعريب أجهزتها الإدارية وإعمام استعمال العربية الفصيحة في مكاتباتها الرسمية يُعبّر عن مدى تفاعل هذه اللغة مع المتطلبات المتطورة للإدارة الحديثة

مجالات التقدم العلمي والحضاري المعاصر، وكما هو معلوم فإنَّ كلاً من أصحاب هذه العلوم يحرص على الحفاظ على لغته وإذاعتها؛ فهم يُعلِّمون علومهم، ويضعون مصطلحاتهم بلغة بلادهم وفق اختيارات علمائهم؛ وعليه فإنَّ الأخذ بحجَّة مَنْ يقول بإعمام لغة أجنبية لتكون لغة لتعليم ناشئتنا العلوم الحديثة سيوقعنا في مشكلة اختيار هذه اللغة، ولن يُعقِّنا البتة من مسألة تعدُّد أجناس المصطلحات العلمية الوافدة.

أما القول باتخاذ اللغة الإنجليزية لغة لهذا النوع من التعليم؛ لأنها لغة العولمة أو لغة الغالب؛ فهي لغة أكثر المؤتمرات العلمية، بل لغة المستقبل فهو - إن تناسينا جدلاً مسألة الهوية اللغوية وصلتها بالفكر والتنمية وما إلى ذلك - مردود لأسباب كثيرة، أهمها أنَّ اتخاذ هذه اللغة لن يحلَّ المشكلة من جذورها؛ لأنَّ هناك لغات أخرى سنظل كغيرنا بحاجة إلى الاطلاع على إنتاج أهلها في المعرفة والحضارة.

إنَّ ملاحظة لحال أبنائنا الطلبة

في الكليات العلمية والتقنية التي يقوم بتدريسهم فيها محاضرون تخرجوا في جامعات أجنبية مختلفة يكشف عن مدى معاناتهم من اختلاف المصطلح بل اللغة التي يعلمونهم بها، ويكشف أيضاً عن ضعف أغلبهم عن امتلاك اللغة التي تعلَّم بها، إضافة إلى تراجعهم في لغته الأم؛ الأمر الذي يعود بالضرر على تقدُّمهم في لغته، وقد يسبب له مشكلات في مجال التعامل اليومي.

وقد لحظت وزارة الصحة في السلطة الوطنية الفلسطينية هذا الاختلاف في الأطباء الذين تعلموا في الخارج؛ فعملت على توحيد مصطلحهم الطبِّي، حيث قامت بتقديم دورات تعليمية وتدريبية لهم تُعرِّفهم من خلالها بأسماء الأدوية وغيرها من مصطلحات الطبِّ والتمريض المستعملة في المستشفيات والصيدليات في فلسطين.

*** إنَّ فحْصاً للغة التعليم العالي في العالم من حولنا سيكشف أننا - نحن العرب - نشكِّل ظاهرة الخروج على القاعدة العالمية العامَّة،

حيث إننا نسمح في عقر دارنا بقيام أكثر جامعاتنا ومعاهدنا العالية بتدريس طلبتنا العلوم العلمية والتقنية باللغة الإنجليزية أو الفرنسية، في الوقت الذي نقوم فيه أكثر المعاهد والجامعات العليا في دول العالم المختلفة بتدريس علومها الحديثة بلغة بلدها الأصلية؛ وهو أمر يُسهّل على طلبتهم العملية التعليمية، ويجعل مادتها العلمية مألوفة عندهم؛ فاللغة— كما هو معروف— ترتبط بالفكر، وإن وجود لغة واضحة سيُسهّل— بلا شك— عملية التوصيل والاستقبال؛ الأمر الذي سيسهم في تعزيز لغة الطالب الأصلية، وجعله يعتز بها، ويسعى إلى تنميتها لتكون كغيرها من اللغات الحية قادرة على التعبير عما يدور في أخلاذ علمائها ومفكريها؛ فاللغة وسيلة أهلها التعبيرية، وهويتهم التي يمتازون بها.

إن ربط اللغة بالفكر ليعني أن أهلها يحملون ثقافة ومضامين ومجازات خاصة بهم تجعلهم يختلفون في فهمهم لأبعاد اللغة الأجنبية التي

يُفرض عليهم التعلم بها؛ الأمر الذي يؤثر على استيعابهم للمادة الدراسية التي يتعلمونها، وقد أثبتت كثير من الدراسات أن التعليم بلغة البلاد يُفضّل التعليم بغيرها؛ إذ يُسهّل على الطالب عملية التحصيل، ويزيد من قدرته على الاستيعاب والإضافة، وأن تعليم الأطفال لغة أجنبية قبل اكتمال نضجه في لغته ليس صحيحاً؛ لأنه يؤثر على اكتسابه لسليقة لغته الأم، بل يُضعفه فيها. وكذلك أوضحت كثير من الدراسات أن الذين يتعلمون العلوم بلغتهم الأم لا يختلفون عن أقرانهم الذين تعلموا بغيرها، وقد يتفوقون عليهم ولاسيما في تعاملهم اليومي في بلادهم.

وفي الأغلب الأعم فإن هناك كثيراً ممن تعلموا العلوم بغير لغة بلادهم يعانون من أمرين: أمر القصور في لغة بلادهم، وأمر عدم القدرة على الإجابة في التعبير عن مضامينهم باللغة التي تعلموا فيها؛ الأمرُ ينعكس سلباً على تلامذتهم الذين فرض عليهم التعلم بغير لغتهم التي ربّوا عليها وترعرعوا على سماعها.

تَسْبُرُ أغواره، وتكشفُ عن ملبساته،
وحجج أصحابه ومناقشتها.

وأياً يكن الأمرُ فلسنا من القائلين
بانقراض العربية، يدعمنا في موقفنا
أسبابٌ وبراهين كثيرة، منها ما يتعلق
بالتاريخ والهوية والتراث والدين
والتواصل على النحو الذي سنفصله في
الدراسة التي جعلناها بعنوان: انقراض
العربية الفصيحة وهم أم حقيقة؟
رابعاً- صعوبة الكتابة العربية:

لم تسلم الكتابة العربية من
هجوم الحاقدين على العربية وأهلها،
ولا يعنيها في هذا السياق الوقوف عند
انتقاصهم من شأن نظام العربية
الكتابي، ومبررات دعوتهم إلى التخلي
عنها إلى الكتابة اللاتينية أو غيرها،
وكان هذه الكتابة الأجنبية تخلص من
العيوب أو النواقص.

ونحن في هذا المقام نودُّ أن ننبه
إلى أن حديثهم عن مشكلات في الكتابة
العربية، وزعمهم بعدم قدرتها على
تمثيل أصوات اللغة العربية -لا يخلو
من مبالغت تنقصها الدقة العلميّة،

وأياً يكن الرأي في هذا المجال
فإننا ننبه إلى أن الأمة أياً كان عدد
أفرادها يجب ألا تتنازل عن استعمال
لغتها في أيِّ مجال من مجالات الحياة
المتنوعة، سواء أكانت علميّة أم فكرية
أم اجتماعية أم حضارية أم غيرها، وقد
سبقت الإشارة إلى شعوب أصرت على
استعمال لغتها في مختلف مجالات
حياتها، ورفضت التعليم في جامعاتها
ومعاهدها وغيرها، مع المحافظة على
تواصلها مع غيرها.

إن الاستفادة من الآخرين يمكن
أن تتم بوساطة ابتعاث بعض أبناء
الأمة إلى بلدان العالم المتقدمة للدراسة
فيها وفق خطة عربية شاملة تراعي
مصالح الأمة، ويلقى على عاتقهم
مسؤوليات النقل والترجمة، لا أن
نحرف ألسنة الأمة وعقولها.

ثالثاً- زعم انقراض العربية:

أثار بعض الدارسين والمفكرين
في هذه الأيام مسألة انقراض كثير من
اللغات في العالم، ومنها اللغة العربية،
وهو موضوع سنفرّد له دراسةً مستقلةً

وتتبع من دوافع الهيمنة والاغتصاب؛ فعلماء اللغات بصفة عامة يعترفون بوجود مشكلات لغوية وكتابية في لغاتهم.

يقول فندريس: "لا يوجد رسم واحد يمثل اللغة المتكلمة كما هي، فإننا إذا تصورنا رسماً مما يُسمى بالرسم الصوتي، وقد زُوّد بحروف متنوعة وبعلامات للتشكيل، فإن هذا الرسم لا يتيح معرفة النطق الحقيقي معرفة تامة لشخص لم يسمع الكلام باللغة التي يقرأها، ومن ثم كان من المعتاد في كتب الأصوات أن تُصور الأصوات اعتماداً على لغة معروفة للقارئ لا على الجهاز الصوتي للإنسان....، ولكن هذه الوسيلة أيضاً غير كافية؛ لأن القارئ - مهما ساعد بمقابلات دقيقة في اللغات التي يعرفها - لا يستطيع إدراك أصوات لغة جديدة، وأن يقوم بتحقيقها دون أن يسمع نطقها نفسه" (٨).

وبوضّح فندريس أن مشكلة الرسم الإملائي عامة فلا يوجد شعب لا يشكو منه، إن قليلاً وإن كثيراً، غير

أن ما تعانيه الفرنسية والإنجليزية من جرائه قد يفوق ما في غيرهما؛ حتى إن بعضهم يعدّ مصيبة الرسم عندنا - أي الفرنسيين - كارثة وطنية" (٩).

ويخلص فندريس إلى ما نريدُ الخلوص إليه في هذا المقام، فيقول: "إذا قمنا بإصلاح شامل دفعة واحدة كنا قد استبدلنا مكان اللغة التي تعودنا عليها لغة كتابية أخرى جديدة، ويترتب على هذا أن نطرح وراء ظهرنا دفعة واحدة جميع المطبوعات التي نُشرت بالفرنسية منذ قرون، وهو أمر مستحيل؛ هذا إلى أن مثل ذلك العمل يُوجب على جيل أو جيلين من الفرنسيين أن يتعلموا لغتين بدلاً من لغة واحدة، وإن هناك من العادات والتقاليد الأدبية ما لا يستطيع المرء أن يغيره بجرّة قلم واحدة" (١٠).

ونجد فندريس يردّ على من زعم أن صعوبة الكتابة الفرنسية تُفقر منها من يريد تعلمها من سكان إفريقية الوسطى أو الشرق الأقصى" (١١)، فيقول: "يبدو أن صعوبات الكتابة

الإنجليزية لم تُعْرِقْ نجاح
الإمبراطورية الإنجليزية^(١٢).

ولا يخفى أن حروف الكتابة
العربية تُشكّل رموزاً كتابية للغات
شعوب أخرى تعاملت مع العرب عبر
الزمن، وفي بيئات مختلفة؛ كمجموعة
اللغات الفارسية ومجموعة اللغات
التركية ومجموعة اللغات الهندية
ومجموعة اللغات الإفريقية^(١٣)؛ الأمر
الذي يعزز موقف القائلين بضرورة
التشبّث بها؛ فهي حافظة تاريخنا
وتراثنا، ورابطتنا مع غيرنا من
الشعوب الإسلامية، ويجعلنا نتهم
الداعين إلى تغييرها بأنهم قوم لا يبيغون
مصلحة الأمة العربية وعلاقاتها
التراثية بالآخرين.

متطلبات دعم العربية في هذا العصر

(٤)

ليس من شك في أن العربية
تتطلب منا- نحن العرب- ألا نكتفي
بالتغني بأمجاد الماضي التليد، وإنما
تتطلب منا أن نوجد لها المكانة القوية
المعززة في عقولنا، وأن نوجد لها

بإنجازاتنا أمكنة من الإعراب على
السنة غيرنا، وهذا حال لا يكون بالكلام
الإنشائي، وإنما يتطلب نهوضاً عربياً
في مجالات الحياة المتنوعة نتّمكن من
خلاله من مشاركة الآخرين في
الإنتاج العلمي والحضاري الجديدين.
أقول:

نحن بحاجة إلى سياسة لغوية
عربية موحدة- بفتح الحاء وكسرها-
عمادها خطط تجتمع على تنفيذها كلمة
الأمة في مشرقها ومغربها، وما لم
تجتمع كلمة العرب على تغيير ما
بأنفسهم للانطلاق معاً نحو الإصلاح
فسихسرون وستخسر لغتهم الفصيحة
مزيّداً من المجالات والمواقع، "وسيعلم
الذين ظلموا أيّ مقلب ينقلبون"^(١٤)،
ولكنها أيّا كانت قتامة الوضع الذي
يعيشه العرب فلن تقرض لغتهم
العربية.

وإذا كان هذا النهوض الذي
تطالب به هذه الدراسة يتطلب أجواء
غير الأجواء التي يتلبّد بها عالمنا فإن
السؤال الذي يطرح نفسه في هذا

فقط، ونرى أن الارتكان عليه لن يكون مُجدياً ما لم يُدعمَ بأمورٍ عمليةٍ متشابهةٍ تتطلبُ النهوضَ المُوَحَّدَ في مجالات الحياة المتنوعة.

ثانياً- تعزيز قيم اللغة في أبنائها:

يشكل تعزيز اللغة في أدمغة أبنائها وشفاه ألسنتهم مطلباً لا يمكن لأية أمة أن تتهاون فيه؛ الأمر الذي يتطلب توعيةً بخطر الوافد الدخيل عليها سواء في لغة الكتابة أم على الألسنة، وتوفير البيئة المدرسية التي يُعنى معلّموها باستعمال الفصيحة في مختلف تخصصاتهم؛ الأمر الذي يتطلب متابعة المعلمين وفق خطة لغوية تنموية عامة؛ لتزويدهم بالإرشادات المطلوبة، وتنمية قدراتهم في امتلاك مفردات اللغة الجديدة؛ وذلك ليتسنى لهم التدريس بالعربية الفصيحة لغة البلاد في جميع المراحل التعليمية، والقدرة على توصيلها لتلامذتهم الذين يجب أن يُعزّزوا فيهم ثقافة أهمية اكتساب الفصيحة، والحرص على الحفاظ على سلامتها.

السياق يكمن في كيفية المحافظة على العربية وحمايتها في هذه الحالة التي يطمح كل عربي إلى تغييرها إلى الأفضل.

وسنقدّم في هذا المجال مجموعة من الرؤى التي - نرى أنها - قد تُعين على الحل:

أولاً- متابعة كشف المخططات والمؤامرات التي تحاك ضدّ العربية: يُشكل كشف الخطط والدّعاوى الهدامة والتحذير منها، وتقديم المقترحات والآراء التي تُعين على الوقاية من أخطارها عملاً مهماً يتوجب على العارفين القيام به؛ وفي هذا السياق يتوجب عليهم تبصيرة الناس بأهداف نوي الدّعاوى والأفكار الضارة، وتوضيح الأضرار الناتجة عن الاستجابة لها، وتبيان الوسائل المنجية منها أو المخففة غلواء تأثيرها السلبي.

وإذا كنا نقول بأهمية هذا التّوجه، ونراه واجباً، وعاملاً مساعداً في حماية العربية فإننا لا نعوّل عليه

إنَّ التَّمَكِينَ لِلْغَةِ الْبِلَادِ فِي أَبْنَائِهَا يُشْكَلُ تَوْثِيقًا لِعُرَى تَوَاصُلِهِمْ بِهَا فِي مُخْتَلَفِ الْمَجَالَاتِ الْحَيَوِيَّةِ، وَسَيَجْعَلُهُمْ يَقْفُونَ بِاعْتِرَازٍ وَقُوَّةٍ فِي وَجْهِ مَا يَتَهَدَّدُهَا مِنْ دَخِيلٍ، وَسَيَنْفِرُ نَوْقُهُمْ الْجَمْعِيُّ مِنْ كُلِّ غَرِيبٍ دَخِيلٍ؛ لِأَنَّهُمْ بِمَا يَمْتَلِكُونَ مِنْ مَقُومَاتٍ لُغَوِيَّةٍ أَصِيلَةٍ سَيَكُونُونَ قَادِرِينَ عَلَى إِحْلَالِ لَفْظِهِمْ النَّابِعِ مِنْ امْتِلَاكِهِمْ قَانُونَ وَضَعَهُ مُحَلَّةً.

إنَّ نَجَاحَنَا فِي إِذَاعَةِ الْفَصِيحَةِ وَالتَّمَكِينَ لَهَا بَيْنَ أَبْنَاءِ الْعَرَبِيَّةِ نَرَاهُ يَتَطَلَّبُ تَحْقِيقَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأُمُورِ تَهَيِّئُ الْمَجَالَاتِ لِبَيْئَةٍ تَحْرُصُ عَلَى اسْتِعْمَالِهَا، وَتَكُونُ قَادِرَةً عَلَى تَوْصِيلِهَا سَلِيمَةً، وَتَتِمُّوْنَ مِلَكَاتِ الْأَطْفَالِ وَالشَّبَابِ فِيهَا، وَإِنَّ مِنْ أَهَمِّ الْعَوَامِلِ الَّتِي تُمْكِّنُنَا مِنْ ذَلِكَ مَا يَلِي:

*** تَعْرِيزَ ظَاهِرَةِ الْحَدِيثِ بِالْفَصِيحَةِ فِي مُخْتَلَفِ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلَا سِيَّمَا الْمَجَالَاتِ الرَّسْمِيَّةِ؛ فَعَمَلِيَّةُ أَخْذِ اللُّغَةِ - كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ - لَا بَدْءَ لَهَا مِنَ السَّمَاعِ وَالْإِسْمَاعِ؛ فَالسَّمَاعُ لِلَاكْتِسَابِ، وَالْإِسْمَاعُ لِلَاخْتِبَارِ

والتدريب؛ لذا فلا بدَّ من تعويد التلاميذ على التحدث معًا باللغة الفصيحة في قاعات الدرس وأقنية المدرسة والمعهد والجامعة، وإقامة المسابقات والأنشطة غير المنهجية التي تَتِمُّوْنَ مِلَكَاتِهِمْ اللُّغَوِيَّةَ فِي الْمَجَالَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَعَلَيْنَا أَلَّا نَهْمَلَ رِيَاضَ الْأَطْفَالِ فِي مَجَالِ اسْتِعْمَالِ الْفَصِيحَةِ بِمَا يَنْتَاسِبُ وَمُسْتَوَاهِمُ الْعَقْلِيِّ؛ فَالتَّعْلِيمُ فِي الصَّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ.

وَفِي هَذَا الْمَقَامِ نَحُثُّ عَلَى مِرَاقَبَةِ تَعْلِيمِ الْعَرَبِيَّةِ فِي رِيَاضِ الْأَطْفَالِ وَفِي الْمَدَارِسِ الْخَاصَةِ وَفِي مَدَارِسِ اللُّغَاتِ، وَكَذَلِكَ نَحُثُّ أَوْلِيَاءَ الْأُمُورِ وَلَا سِيَّمَا مَنْ يَسْتَعِينُونَ بِمُرَبِّياتٍ أَوْ عَامِلِينَ أَجَانِبَ فِي بَيْوتِهِمْ عَلَى مِرَاقَبَةِ لُغَةِ أَبْنَائِهِمْ؛ فَالطِّفْلُ الْعَرَبِيُّ فِي بَعْضِ الْمَنَاطِقِ الْعَرَبِيَّةِ الْخَالِصَةِ عِنْدَمَا يَبْدَأُ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الرُّوْضَةِ أَوْ الْبَسْتَانِ يُوَاجَهُ بِمُسْتَوِيَّاتٍ لُغَوِيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ تَخْتَلِفُ عَنِ لُغَةِ الْأُمِّ أَوْ الْأُسْرَةِ الَّتِي أَلْفَهَا، حَيْثُ سَيَسْتَمِعُ إِلَى لُغَاتٍ أَقْرَانِهِ الَّتِي - بِلَا شَكٍّ - سَتَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْبَيْئَةِ وَالطَّبَقَةِ،

ولغة المُرَبِّي الذي قد يتحدَّث بمستويين لغويين: مستوى اللهجة، ومستوى الكتاب، فما بالنَّا حين يكون من طبقة أنعم الله عليها فابْتَلَى بحاضنة أو خادمة لا تعرف لغة أمه، وروضة ومدرسة تُعلم لغات متعددة؟!.

ونحذر في هذا السياق من فرجة اللسان العربي أو تعجيمه في بعض البلدان العربية، فهناك طبقات أو شرائح عربية ارتبطت في عملها أو مصالحها مع غير العرب من غربيين وغيرهم؛ الأمر الذي أثار جليًا في لغتهم، كما في بعض أبناء بلاد المغرب العربي الذي يجيّد أكثرُ أبنائه اللغة الفرنسية والإسبانية، وكذلك أغلب سكان شبه الجزيرة العربية في دول الخليج العربي وبلاد الحجاز، فهذه الديار بعد أن كانت مصدر الفصاحة والمثال المُحتذى تحولت عن رسالتها التي اشتهرت بها، وكان بإمكانها بما تمتلكه من إمكانات مادية أن تكون مراكز لنشر العربية على السنة الأجانب الوافدين إليها للعمل.

*** إعادة النظر في طرائق تعليم اللغة العربية، وتسخير الإمكانيات الحديثة كالحاسوب وبرامجه التعليمية، والعمل على رفع مكانة مدرّس اللغة العربية، وحفز المتفوقين منهم بالمكافآت المعنوية والمادية.

*** احتواء مناهج التدريس على قدرٍ مشتركٍ من المعرفة بدرسنا أبناء العرب جميعهم في المشرق والمغرب، وتضمينها بالأوضاع الجديدة للمعاصرين، وتوصيات اتحاد الجامعات اللغوية؛ ليأنسها النشء، والاستفادة فيها من تراث العرب في الفكر والحضارة؛ وذلك تذكيرًا لهم بفضل أسلافهم العرب والمسلمين في هذه المجالات على المجتمع الإنساني كافة، وبيانًا لدورهم الإنساني أو العالمي في الحضارة الغربية - منبع الاستعمار والعولمة - التي انبثقت من ضلوع عربية إسلامية؛ وتأكيدًا على فُسْرة اللغة العربية الفصحى على التعامل مع العلوم المختلفة شأنها في ذلك شأن أية لغة عالميّة معاصرة؛ فهذه اللغات

ودروسهم بفصاحة الرئيس أو الملك
الفلاني، وإن فصاحة لسانه وبلاغة
تراكيبه لَمَّا يُعَزَّزُ مِنْ تَأْثِيرِهِ فِي
الجمهور، وفي المقابل يتحدثون بل
يتندرون ببعض أغلاطهم الشائنة، ومن
ذلك مثلاً، نطق كلمة: "قَمَّة" بضم القاف
للدلالة على نطقها مفتوحة، وكما هو
معلوم فإن بين هذين النطقين بونا
شاسعاً في المعنى، فالقمة بضم القاف
تعني المزبلة، جاء في لسان العرب في
مادة قم: "قَمَّ الشيء قَمًّا: كنسه...،
والمقمة: المكنسة. والقمامة: الكناسة،
والجمع قمام... وتَقَمَّمَ أي تتبع القمام
في الكناسات. قال ابن بري: والقمة،
بالضم، المزبلة؛ قال أوس بن مخرم:

قالوا: فما حال مسكين؟ فقلت لهم:

أضحى كقمة دار بين أنداء

"أما القمة بكسر القاف فهي" أعلى

الرأس وأعلى كل شيء، وقمة النخلة:

رأسها. وتَقَمَّمها: ارتقى فيها حتى يبلغ

رأسها. وقمة كل شيء:

أعلاه... والقمة، بالكسر: القامة...،

ويقال: فلان حسن القامة والقمة

وأصحابها كانوا في يوم ما عالة على
العرب ولغتهم؛ الأمر الذي يُعَزِّزُ الثقة
بها، ويدفع إلى عدم تصديق الدعاوى
المغرضة التي يبنُّها دعاة العولمة من
مغرضي العصر ضدَّ العربية ولغات
أخرى؛ فظاهرة اقتراض اللغات بعضها
من بعض ظاهرة طبيعية في مختلف
البيئات والأزمنة.

*** استعمال اللغة الفصيحة

في المؤتمرات والندوات، فليس معقولاً
أن نطالب بسيادة الفصيحة ولا نجعل
من أنفسنا أمثلة حية لنطقها ونشرها،
ونحن بحاجة إلى مراقبة لغوية جادة،
بل وعي مجتمعي عام بأهمية المحافظة
على سلامة هويتنا اللغوية، وضرورة
تأنيب مَنْ تَقَصَّرُ بِهِ هِمَّتُهُ مِنْ أَبْنَائِنَا عَنْ
امتطاء صهوة سلامة لسانه العربي.

*** العناية بصياغة خطب

الحُكَّام وتصريحاتهم بالفصيحة،

وضرورة تشكيلها لهم؛ ليكون كلامهم

نماذج يحتذىها وزراءهم ومحكوموهم،

وقد نقترح تشجيعاً لهم على ذلك أن

ينوِّه الدارسون والمتقِّون في لقاءاتهم

راغبى القيادة إلى الاهتمام بسلامة لغتهم.

*** العناية بالترجمة إلى

العربية، وذلك بالحرص على لغة الترجمة، واختيار المصنفات الأجنبية المفيدة لنا، والمناسبة لعاداتنا وثقافتنا؛ وذلك من خلال إنشاء المؤسسات القادرة على الترجمة وفق خطة عربية واضحة.

وفي هذا السياق ألا يحق لنا أن نتساءل، فنقول: لماذا لا يتحدث مسؤولونا باللغة العربية الفصيحة في المؤتمرات الصحفية التي يعقدونها مع رؤادهم الأجانب على الأقل؟، ولماذا لا تكون سلامة لغة المسؤول من العوامل المؤهلة له لتسلم أي منصب جماهيري قيادي في الدولة؟، ولماذا لا تتضمن صيغة القسم الذي يحلفه الرئيس أو الوزير نصاً يتضمن حرصه على رعاية العربية الفصيحة في إطار مسؤولياته؟؛ الأمر الذي نراه يسهم في إعادة الكرامة إلى هويتنا اللغوية، وإذاعتها سليمة على ألسنة المترجمين

والقومية بمعنى. يقال: إنه لحسن القمة على الرجل... والقمة أيضاً: وسط الرأس. والقمة: رأس الإنسان... والقمة والقامة: جماعة القوم".

إن إقناع الحاكم والمسؤول بضرورة الاهتمام بسلامة اللغة سيكون له أثره الإيجابي في اهتمام الآخرين من أبناء المجتمع بسلامة لغتهم، والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام، هو: لماذا لا يسعى اللغويون في عالمنا العربي، ولاسيما من تربطهم علاقات بالرؤساء وأعضاء مجالس الشعب^(١٥) - التي تشكل سلطة التشريع - إلى المطالبة بسن قانون يلزم وجود منصب المستشار اللغوي في الرئاسة والوزارات، تكون مهمته الصياغة ومراقبة لغة المسؤول والإرشاد؟ فهذا القانون سيجعل سلامة اللغة من المهام التي تتبغى العناية بها، ويمنح عضو مجلس الشعب سلطة المسائلة في حالة التقصير، أو التحدث بغير لغة البلاد عندما لا تدعو الضرورة إلى ذلك؛ الأمر الذي سيدفع

من أبنائها وغيرهم،

*** تعزيز الغاية بلغة

الإعلام، وتخصيص جوائز للقنوات والإذاعات والبرامج والمسلسلات والأفلام الفصحى التي يُقبل عليها الجمهور العربي في مشرقه ومغربيه، وضرورة تعبيرها عن مضامين عربية؛ تنمية لحصيلة أبنائنا من لغتهم وفكرها.

وتتقياً للإعلام من الآثار الضارة بلغتنا يتوجب منع تسمية القنوات أو البرامج بأسماء أجنبية، مثل: "دريم" و"اسبيس تون" من القنوات، و"سوبر استار" و"استار أكاديمي" من البرامج، وفرض غرامات على الأخرى التي تتهم على معلّمي العربية، أو تروج لغير العربية على ألسنة العاملين فيها، أو تخصص من برامجها ما يعين على الترويج لخروج الشباب لعربيته فتحدث مثلاً عن العرَبِيَّةِ أو الرُّوشَنَةِ وما إلى ذلك بوصفها لغة الشباب الراقى، وفي حالة عنادها وإصرارها على تقديم ما يسيء

إلى هويتنا اللغوية فإن منعها من العمل لا نراه يمس بقواعد الديمقراطية التي تأخذ برأي الجماعة، أو إن شئت فقل: برأي الأغلبية، وتراه يحقق المصلحة العامة، ولا ينبغي لأي كان أن يؤثر بجهله في الإضرار بها، وخاصة عندما يصيب الأمر مقومات الأمة.

إن لجوعنا إلى المحاسبة الجادة - دون تمييز أو مجاملة - مرة سيكون له أثره الإيجابي الفاعل في الإصلاح والنهوض بمجتمعنا العربي؛ فالمهم أن نبدأ الخطوة الأولى وفق خطة عربية قومية قائمة على التنسيق وتبادل التجارب والخبرات.

وفي هذا السياق نؤكد ضرورة تفعيل نصوص الدساتير العربية الخاصة بسيادة اللغة العربية في بلادها، وعدم جعل الاستثناء قاعدة في التدريس؛ فالقول بجواز اللجوء إلى لغة أخرى في دروس بعض العلوم الحديثة المتقدمة لا نراه يعني استعمال اللغة الأجنبية بدل العربية، ولكنه يعني - فيما نفهم - جواز اللجوء إليها في الدلالة

على مصطلح ما أو اسم آلة جديدة أو ما إلى ذلك.

نحن نمتلك التربة الخصبة التي تطاوعنا في تمكين عربيتنا الفصحى في مناحي حيواتنا العروبية، ونمتلك القانون الدستوري الذي يحتاج إلى إرادة سياسية فاعلة على مستوى الدولة والوطن تُعزّز في المجتمع دور العربية الفصحى في معاهدنا ومؤسساتنا ووسائلنا الإعلامية وغيرها بعيداً عن أية خلافات سياسية.

*** تعريب لغة الحاسوب،

وحتّ الجماهير العربية- من خلال مواقع الهيئات والمؤسسات الموثوقة- على استعمال الفصحى فيما تنشره عبر شابات البراق (النت).

ولعلّ مما يدعم هذا التوجه ازدياد إقبال أبناء العروبة على الانتفاع بخدمات البراق؛ فبحسب موقع إحصاءات الإنترنت العالمية فإن اللغة العربية هي أكثر اللغات تحسناً في عدد المستخدمين، حيث تضاعف عدد المستخدمين فيها بنسبة ٩٤,٥ ٪ أي

بحوالي ١٠ أضعاف ما بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٧م^(١٦)، وكذلك موافقة

(هيئة إيكان) التي تشرف على إدارة عناوين الإنترنت على المستوى العالمي... على كتابة أسماء المواقع على شبكة الإنترنت بإحدى عشرة لغة غير لاتينية... هي: العربية والفارسية والصينية المبسطة والتقليدية والروسية والهندوسية واليونانية والكورية والعبرية واليابانية والتاميلية^(١٧).

ثالثاً- وضع سياسة عربية مدروسة لتعلّم اللغات الأخرى:

وإذا كنا نقول في هذا المقام بضرورة تعلّم اللغات الأخرى لتحقيق فوائد تعود بالنفع على أبناء الأمة فإننا نفرق بين التعليم بلغة البلاد الفصحى واللجوء إلى لغة أخرى بديلة تحل محلّها، ونرى أنّ تَخَلِّي لُيَّة لمة عن لغتها في تعليم أبنائها في الجامعات والمعاهد العالية لِيُشَكِّل تَنَازُلًا خطيراً عن أهمّ خصائص هويتها، وتعزيزاً لمكانة الآخرين في قلوب أجيالها الجديدة: هذه الأجيال التي ستُصرفُ

عن لغتها، وستكون مهياةً بل لقمةً
سائغةً يلوکها الآخرون بلا حولٍ مقاومٍ
ولا قوةٍ؛ الأمرُ الذي لا یصبُّ في خدمةِ
المصالحِ الوطنیةِ.

إنَّ تَعَلَّمَ اللغاتِ الأخرى ینبغي
أنْ یخضعَ لسیاسةٍ عربیةٍ عامَّةٍ تَخْدُمُ
مِصَالِحَ المِجْتَمَعِ العربیِّ بصفةٍ عامَّةٍ،
وتجعلُ من هذه اللغاتِ وسیلةً للتَّواصلِ
المُتَّفَاعِلِ مع الآخرين، وليسَ بديلاً أو
طريقاً لتَغْلُغُلِ مفرداتِ اللغاتِ الأجنبيةِ
وتراکیبها في لغةِ البلادِ.

رابعاً- مداومةُ تنميةِ اللغةِ وفقَ قواعدِ
الصیاعةِ فیها:

ولكي نتمكن من تحقيقِ الآمالِ
في تنميةِ لغتنا العربیةِ، وعدمِ استفعالِ
الدخيلِ فیها یتوجبُ علينا مداومةُ
تَحَسُّسِ الوسائلِ الکفيلةِ للتخفيفِ من
انتشارهِ فیها، وهو ما یتطلبُ- كما قلتُ
من قبل- تعزيزَ قِیمِ العربیةِ الفصحیةِ
وثقافتِها في عقولِ أبنائنا؛ لتتطلقَ
ألسنتُهُم وهم یترجمونَ إلى العربیةِ بما
تَکْتَنِزُهُ منها، ولتعملَ على رَفْدِها بألفاظِ
وتراکیبِ عربیةٍ جدیدةٍ تَسْتَمُدُّ شرعیةَها

من صلتِها بنظامِ العربیةِ الموروثِ.

وإذا كانَ العربُ القدماءُ قد
قالوا: إنَّ لكلِّ مقامٍ مقالاً فإننا نقول: إنَّ
لكلِّ جَدیدٍ أهلهُ الذینَ یمتلكونَ معرفةَ
ماهیتِهِ ووظيفتِهِ؛ الأمرُ الذي يجعلُهُم
أكثرَ قدرةً من غیرِهِم على التعبيرِ عنه،
وهنا یمکنُ أنْ نطرحَ السؤالَ التالی:

مَنْ یمْلِكُ الوضعَ اللغويَّ

الجديد؟

ولكي نجیبَ عن هذا السؤالِ نوذُّ
أنْ نطرحَ سؤالاً آخرَ هو: ما دورُ
المجامعِ اللغویةِ في أوضاعِنا اللغویةِ
الجديدة؟، وهل تَمْلِكُ وحيدةً هذه السلطةُ
التي تُمَكِّنُها من الوضعِ والإقرارِ
وَقَرَضِ الاستعمالِ؟.

أقول:

نحن نُقدِّرُ جهودَ المجامعِ العلمیةِ
واللغویةِ في هذه القضيةِ الحیویةِ، ونقرُّ
لها بالمشاركةِ في الأوضاعِ اللغویةِ
الجديدةِ، ونؤكدُ ضرورةَ فَرَضِ سُلْطَةِ
لُغَوِيَّةِ لها؛ وذلك بتنفیذِ قراراتِها
وأوضاعِها اللغویةِ الجدیدةِ، وتمکینِها
من المراقبةِ اللغویةِ ومحاسبةِ الخارجینَ

على اللغة ولاسيما أصحاب المحلات التجارية الذين يُسمّونها بتسميات أجنبية؛ والبرامج الإعلامية التي لا يلتزم معدّوها باللغة العربية السليمة؛ والأغاني والمسلسلات والأفلام التي تتشرّ ارتجال الشباب من ألفاظ وتراكيب ليس لها وَجْة في اللغة.

ومع هذا فنحن نرى أن لهذه المحافل اللغوية شركاء كثيرًا في هذا الميدان يتمثلون في الخبراء والمتخصصين والمهنيين في المجتمع العربيّ كلّ: شرقه وغربه، شماله وجنوبه؛ عوامّه وخواصّه؛ ولا نتورّع في هذا المجال من التصريح بالاعتراف بمشاركة القادرين الثقات من غير العرب في هذا المضمار؛ فقد سبق لهم أن شاركونا في مجالات حياتنا المتنوّعة، وأرسوا معنا حضارتنا العربية الإسلامية، وألقوا المصنفات المعتمدة لدينا، وما مؤلفات البخاري والترمذي، وابن جني، وأبي حنيفة والزمخشري، وسيبويه، والطبري، وابن ماجه، ومسلم، والقرويني،

وبرجستراسر، وأوجست فيشر، ونيقولا دوبريشيان، وغيرهم من قدماء ومعاصرين إلا شواهد وأمثلة دالة على دورهم المُسنهم معنا؛ لذا فنحن - في هذا المقام - ندعو إلى التواصل مع المؤسسات والمعاهد التي تعنى بالعربية في غير البلاد العربية؛ للتعاون معها، والاستفادة منها في دعم العربية.

وكما هو واضح فنحن لا نريد أن نُحرّم العربية في أوضاعها الجديدة من إسهام كل القادرين على الإفادة، ولا نتقيّد بقيود الزمان والمكان والجنس التي ساج بها القدماء هذه اللغة ودراستهم لها؛ فالفصاحة والبلاغة وطاقت الإبداع ليست حكرًا على زمن أو بيئة أو جنس؛ فمتى توافرت الإمكانيات، وهُيئت الوسائل والأجواء فلا بدّ من الإنتاج.

وكي لا يُظنّ أننا نفتح الأبواب على مصاريعها في هذا المجال، وأننا لا نعترف بالضوابط أو القوانين المنظمة فإننا نوضّح رأينا فنقول: إذا كنّا نعترف لأفراد المجتمع - كل في

مجاله - بالقدرة على الوضع الجديد في اللغة فإن هذا لا يعني الأخذ بكل جديد يُدَّعَى، فهناك سلطة الحكم والإقرار التي لا يملكها إلا خبراء اللغة، ولا سيما المجمعون؛ فهؤلاء هم القادرون على النخل وتمييز الصحيح من الخطأ، فما كان موافقاً لأحكام اللغة في الوضع أجازوه وأقرّوا إذاعته، وما جاء مخالفاً حذّروا منه، وأبانوا وجه خطئه، وسعّوا إلى تصحيحه وتعديله أو اقتراح ما يروّنه مناسباً بشأنه.

لا بدّ إذا من تضافر الجهود، فالمسؤولية عامّة، والنتائج يتأثر بها الجميع؛ فلا يصحّ أن يترك للجمهور حق التصرف دون توجيه ومراقبة، ولا ينبغي للمجمعين وخبرائهم أن يواجهوا العبء دون الاستفادة من الجمهور صاحب سلطان النفوذ الجمعي في قبول الأوضاع الجديدة واستعمالها.

ليس معقولاً - فيما نرى - أن يمتلك المجمع سلطة الوضع منفرداً، وليس ممكناً أن يُمثّل الخبير المجمعى جمهور أقرانه في بيانات العربية كلّها،

وليس ناجعاً أن ينتظر الناس مجادلات المجمعين ومناطحاتهم؛ وظهور مطبوعاتهم ومنشوراتهم التي غالباً ما تتأخر بحكم شح المال أو ضعف الإمكانيات.

ولسنا في هذا المقام بصدد التذكير بسؤال عيسى بن عمر الثَّقَفِيّ لأبي عمرو بن العلاء، "قال يا أبا عمرو، ما شيء بلغني أنك تُجيزه؟ قال: وما هو؟ قال: بلغني أنك تُجيز (ليس الطيب إلا المسك) بالرفع، قال: فقال أبو عمرو: نمت يا أبا عمرو، وألجّ الناس! ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب، وليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع" (١٨).

إن استمرار الوضع على حاله دون إيجاد طرق التواصل السريعة التي تضمن فتح أبواب التعاون بين الجمهور والمجمعين لا يصب في تحقيق الآمال التي نصبو إليها في المحافظة على اللغة الفصيحة وتتميتها، ونشرها على ألسنة أبنائنا بوصفها رابطة قومية تُزيل أثر اللهجات

وللمجتمع ذوقه، وللبيئة حكمها؛ فهذه عوامل مهمة في سيطرة أحد هذه الألفاظ على غيره، وانتشاره بين الناس؛ وعليه أن يخضع لنتائج استفتاء الجماعة المتخصصة في بيئات اللغة المتعددة: سلطان الفصل في هذه المسألة.

وإن لهذا المقترح ما يدعم تنفيذه بكل سهولة في هذه الأيام، فلدينا من وسائل الاتصال السريعة وغير المكلفة، وخبراء وضع الاستبيانات، والمراكز أو الجمعيات اللغوية أو العلمية المنتشرة في البلاد العربية، وما إلى ذلك ما يعيننا على الاسترشاد بأبناء الأمة في تحقيق هذه الغاية القومية.

وليس سليماً أن يجتهد كل محقق علمي أو قُطر عربي في هذا المجال؛ فقد سمعنا أن هناك من يُحرّم على قومه استعمال الأسماء أو الألفاظ الأجنبية، ويفرض عليهم الاجتهاد في وضع البديل العربي لاستعماله.

وإذا كنا نُكَبِّرُ هذه الغيرة العربية، ونرى فيها جهداً محموداً نحو

والعاميات في المحافل والاجتماعات العربية العامة.
أقول:

إنَّ صاحبَ المهنة أو التخصص هو صاحبُ الفِطْرَةِ اللغوية في ضيَعته؛ لذا فهو القادرُ على التعبيرِ السليم عن طبيعة عمله، وهو القادرُ - طالَ الزَمَنُ أمْ قَصُرَ - على وَضْعِ البديلِ المناسبِ للمفرداتِ الأجنبيةِ للوفاةِ.

ويَتوجبُ على اللغويِّ - في هذا المقامِ - أن يعترفَ له بهذه الفِطْرَةِ اللغوية في عمله، وأن يقومَ بتسجيل ما يَسْمَعُهُ مِنْهُ على عادةِ لُغَوِيِّ العَرَبِيَّةِ القِدماءِ في السَّماعِ عن مُعاصِرِيهِمْ من أهلِ اللغة، ووَصْفِهِ وإجراءِ التَّعْديلاتِ على المُنْحَرَفِ مِنْهُ؛ لِيُكْسِبَهُ سَلَامَةَ النِّظامِ اللُّغَوِيِّ.

وإذا ما وَجَدَ تَعَدُّداً للألفاظِ بل البدائلِ المترادفةِ الدَّالَّةِ على مُسَمًّى واحدٍ، وأَقْرَبَ بِسَلَامَتِها فعليه - كما أرى - ألا يُحْكَمَ ذَوْقُهُ في تغليبِ أحدها على الآخر، فللفردِ ذَوْقُهُ، وللخبرِ المتخصصِ رأْيُهُ وَحُكْمُهُ وَذَوْقُهُ،

التعريب الخالص للغتنا فإن نتائجها-
 فيما نرى أيضاً- غير مأمونة العواقب؛
 لأن اللغة ملك الجميع، ومن الصعب بل
 من المستحيل تعميم إنتاج هذا الاجتهاد
 في الأقطار الأخرى لأسباب كثيرة؛ لذا
 فإننا ندعو دولنا العربية إلى أن تجتمع
 في الجامعة العربية- بيت العرب
 جميعاً- لا لتذيع نبوءة بل ادعاء باطلاً
 عن انقراض العربية الفصحى^(١٩)، بل
 للاتفاق على كلمة سواء في الاستفادة
 من هذه المبادرة الشجاعة، وذلك بسياسة
 لغوية موحدة تتضافر فيها الجهود
 العربية للإسراع في عملية تعميم البديل
 العربي الواحد في الأصقاع العربية
 كلها، أما أن يترك الاجتهاد لكل محفل
 أو بلد أو دولة دون تنسيق مع الآخرين
 فقد ينتهي الأمر إلى إيجاد ألفاظ جديدة
 متنوعة للدلالة على مضمون واحد؛
 الأمر الذي يبقى جانباً من المشكلة،
 وهو بعثرة الجهود، والإيغال في تجزئة
 المَجْزَأ؛ الأمر الذي قد يدفع عتوة إلى
 القول بأن المحافظة على الوحدة اللغوية
 مع استعمال الدخيل خير من التفرقة

بألفاظ مولدة تختلف حروفها وصيغها
 باختلاف الأهواء والأذواق والثقافات
 والاجتهادات في أصقاع العرب.

وحبذا إعلان يوم للغة العربية
 نحقي سنوياً فيه بلغتنا العربية
 الفصيحة، وذلك بفعاليات أدبية وتنقيفية
 وإعلامية في جميع الدول العربية،
 ووفق خطة قومية تُشرف عليها جامعة
 الدول العربية، وفي إطار هدف عام
 يدعم كل ما من شأنه أن يسهم في
 خدمة لغتنا الفصيحة، ومن هذه
 الفعاليات إقامة الأسواق الأدبية لعرض
 أعمال تمثيلية تستعرض ألفاظاً
 ومصطلحات عربية جديدة تكون بدائل
 لواردات عربية دخيلة، والإعلان عن
 نتائج مسابقات في مناح متنوعة،
 كالأدب والغناء والتمثيل والدراسات
 الهادفة وهلم جرا.

وسلام على من اتبع الهدى، والله
 تر الحارث بن حنظلة (ت. ٥٤ ق.هـ)
 حين قال: (الخفيف)
 إنما العجز أن تهّم ولا تف (م)
 عل، والهّم ناشب في الضمير

وقال المتنبّي (٣٠٣ - ٣٥٤هـ):

بالعمل، فقال في كتابه المجيد: ﴿كَبُرَ

(الوافر)

مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٠﴾

وكان على الفتى الإقدام فيها

والله ولي التوفيق

وليس عليه ما جنت المنون

أ.د. صادق عبد الله أبو سليمان

وصدق الله العظيم حين

عضو المجمع المراسل من فلسطين

حثّ الإنسان على أن يتبع القول

حواشي الدراسة ومراجعتها

- (١) ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، ١٩٥٢م، ج ١، ص ٣٣.
- (٢) ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون، دار القلم - بيروت، ط ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م، ص ٥٤٦.
- (٣) يُنظر على سبيل المثال: الراجحي، عبده علي: فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة العربية - بيروت، ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م، ص ٥٩ - ٧٦ وأبو سليمان، صادق عبد الله: قطوف من كتب اللغة، دار المقداد، ط ٢/ ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م، ص ١٣١ - ١٣٥.
- (٤) القاسمي، علي: "انقراض اللغة العربية خلال القرن الحالي"، مقالة قرأها في مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، في دورته (٧٣)، ٢٠٠٦م - ٢٠٠٧م ونشرها في بعض مواقع شبكة البراق (النت).
- (٥) ذكر الزبيدي (بفتح الزاي)، محمد ابن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني (ت. ١٢٠٥هـ) في معجمه "تاج العروس من جواهر القاموس" في مادة (ع.ك.د.) "وعكاد كَسَّاب، جبل باليمن، قرب مدينة زبيد حرسها الله، وسائر بلاد الإسلام، أهلها باقية على اللغة الفصيحة إلى الآن، ولا يُقيم الغريب عندهم أكثر من ثلاث ليال؛ خوفاً على لسانهم".
- (٦) محمود عبد الرحيم: الأعمال الكاملة للشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود (القصائد والمقالات)، تحقيق وتقديم: عز الدين المناصرة، الناشر: دار الجليل للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق، ط ١/ ١٩٨٨م، ص ٤٦.
- (٧) أبو سليمان، صادق عبد الله محمد: اتجاهات الفكر اللغوي في مصر العربية في ثلاثينيات القرن العشرين، رسالة دكتوراه بإشراف: أ.د. عبد المجيد أحمد عابدين، جامعة

- الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص ٢٢٨-٢٥٢.
- (١٤) القرآن الكريم، سورة الشعراء، من الآية: ٢٢٧.
- (١٥) و تسمى أيضا مجلس الأمة والمجلس التشريعي.
- (١٦) يُنظر، موقع شبكة الكوفية برس- فلسطين، ٢١ / ١٠ / ٢٠٠٧م.
- (١٧) السابق.
- (١٨) الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن: طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٣٩٢هـ = ١٩٧٣م، ص ٤٣.
- (١٩) حدث هذا في مؤتمر لغة الطفل الذي نظّمه المجلس العربي الأعلى للطفولة، وعقد في مقر الجامعة العربية في: ١٧- ١٩ فبراير ٢٠٠٧م.
- (٢٠) القرآن الكريم، سورة الصف، الآية: ٣.
- (٨) فندريس، جوزيف: اللغة، تعريب: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مطبعة لجنة البيان العربي، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١ / ١٩٥٠م، ص ٤٠٦.
- (٩) السابق: ص ٤٠٥.
- (١٠) السابق: ص ٤١٥.
- (١١) السابق: ص ٤١٤.
- (١٢) السابق: ص ٤١٥.
- (١٣) ينظر في تفصيل لغات الشعوب التي تكتب بالرموز العربية: عبادة، عبد الفتاح: انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم العربي، دار الغد العربي، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية- القاهرة، ط ٢ / د.ت، ص ٣٩-٩٥.